IUGJIS
Vol 27, No 1, 2019, pp 123 - 139

ISSN 2410-5201

مجلة الجامعة للدراسات الإسلامية (عقيدة – تفسير – حديث)

تاريخ الإرسال (2018-02-11)، تاريخ قبول النشر (2018-03-12)

آيات قصة ابنيّ آدم في سورة المائدة دراسة موضوعية

أ . د. سلام عبود حسن [1]،*

[1] الجامعة العراقية – كلية التربية للبنات– العراق

* البريد الالكتروني للباحث المرسل:

E-mail address: Dr_salam1977@yahoo.com

الملخص:

أوَّل قصص بني آدم على الأرض، هو أوَّل آدمي يَموت في الأرض قبل موت آدم – عليه السلام .قال تعالى اقرأ يا محمد علي اليهود في المدينة حقيقة خبر ابني آدم حين تقرب كل منهما إلي الله ـ تعالي بقربة، فتقبل قربة أحدهما لإخلاصه وتقواه، ولم يتقبل من الآخر لعدم توافر الإخلاص فيه ، وتوعده بالقتل، فرد الأخ التقي الصالح بأن الله تعالى لا يتقبل العمل إلا من عباده الأتقياء المخلصين، قائلا: لئن أغواك الشيطان فمددت يدك نحوي لتقتلني، فأنا لن أمد إليك يدي لأقتلك، وذلك لأني أخاف الله رب العالمين، فإن الأخ الظالم سولت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين.وبعد وقوع أول جريمة قتل لآدمي علي وجه الأرض أصابت القاتل مختلف ضروب الحسرة والحيرة لأنه فوجئ بأخيه جثة هامدة أمامه بلا حراك، ولم يدر ماذا يصنع بها بعد أن قتل صاحبها، وبدأت الجثة في التعفن أمامه، فأرسل الله غرابا ينبش أمام هذا الإنسان القاتل ، فانفجر هذا القاتل باكيا، ومتحسرا علي جريمته، قائلا: يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فقام بدفن جثة أخيه وهو يبكي ندما علي جريمته.وكما كانت عملية دفن جثة هذا القتيل هي أول عملية دفن في تاريخ البشرية، وهذا الدفن كان بأمر من الله .

كلمات مفتاحية: قرآن- تفسير - ابني - آدم - قصة.

The verses of the two son Adam In Surat Al-Maida Objective study

Abstract

The first story of the sons of Adam on earth is the first Adam to die in the land before the death of Adam - peace be upon him. The Almighty said, O Muhammad Ali, the Jews in the city, the truth of the news of my son Adam when you approach each other to God. , And did not accept from the other because of the lack of sincerity in it, and promised to kill, Brother good brother that God does not accept the work only from the faithful worshipers loyal, saying: If the devil seduced extended your hand grammar To kill me, I will not extend my hand to kill you, because I fear God the Lord of the Worlds, the unjust brother Solt himself killed his brother killed him After the first murder of Adami on the face of the earth, the murderer suffered various forms of grief and confusion because he was surprised by his brother dead body in front of him motionless, did not know what to do after the killing of the owner, and began to rot in front of him , God sent Grappa before this deadly man, blew this killer weeping, and excited about his crime, saying: O Wilty I could not be such a crow Vuari my brother's brother buried his brother's body crying when I As the burial of this dead body was the first burial in the history of mankind, this burial was ordered by God.

Keywords: two son Adam- Surat Al-Maida.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، قيوم السموات والأرضين، ومدبر الخلائق أجمعين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا نِدّ وَلَا معِين، وأشهد أن مُحمّدًا عبده ورسوله سيد الأولين وأكرم اللاحقين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

أهمية البحث وهدفه:

فمن ضمن واجبنا كمدرسين أن نكتب بحوث للترقية لأهمية القرآن قمت بالبحث عن موضوع في القرآن الكريم وهو من ضمن اختصاصي، فجرى الاختيار على أن أكتب في قصة ابنيّ آدم، الواردة في سورة المائدة، والتي تحمل دلالات كثيرة، وتعالج كثيراً من مشاكل العصر، ولها شبه بكثير مما يجري حولنا من جرائم.

الدراسات السابقة:

بعد البحث والتفتيش عن هذا الموضوع في الدراسات والبحوث وشبكة الانترنيت لم أجد سوى هذه الدراسات:

1. من القصص القرآني: قصة ابني آدم عليه السلام للدكتورة سناء محمود جامعة الملك فهد بجدة وهي دراسة تحليلية.
2. دراسات ومقالات وخطب تحدثت عن هذه القصة في مواقع الانترنيت لا تتجاوز عدد الأصابع ولم تكون موثقه من المصادر والمراجع التفسيرية.

منهج البحث:

عند النظر في أساليب مَن كتب في التفسير الموضوعي، نراهم لا يلتزمون منهجاً واحداً في مسائل كتابه البحوث، وفي الترتيب بينها من حيث التقديم والتأخير، لكنها في جوهرها ومسائلها الأساسية لا تكاد تختلف، وقد قمت بتقديم معلومات أساسية في التعريف بالآيات، وأهدافها، وخصائصها ومميزاتها والمناسبات بينها، والمعنى الإجمالي لها، ثم تناولت مواضيع الآيات، وقسمتها إلى مقاطع، واخترت لها عناوين من الآيات نفسها، واستشهدت ببعض الآثار التي تعين على فهم القصة، وما كان فيها من ضعف فقد حاولت أن أنبه عليه، وتعرضت لذكر بعض الخلافات التي تتعلق بأحداث القصة، كما عزوت الآيات القرآنية إلى مواضعها من الكتاب العزيز، وخَرَجْتُ الأحاديث النبوية من مَظَانِّهَا من كتب الحديث، غير أني لم أخرِّج آيات القصة في ثنايا البحث لكثرة تكرر ورودها، ولأني كتبت الآيات كلها مخرَّجة في الصفحة الأولى بعد العنوان.

فنسأل الله ربنا سبحانه أن يعيذنا من شر الشيطان، وأن يرزقنا برحمته وفضله الفردوسَ في أعالي الجنان.

المبحث الأول: بين يدي قصة ابنيّ آدم

المطلب الأول: عدد آياتها وخصائها

أ- موقع الآيات من القرآن

قصة ابني آدم تقع في الربع الأول من سورة المائدة، وسورة المائدة هي السورة السابعة والأربعون، حسب ترتيب المصحف.

ب- مكان نزولها وزمانه:

"هذه الآيات هي من ضمن سورة المائدة من السور المدنية، وهي من أوائل ما نزل في المدينة؛ فقد سبقتها البقرة وآل عمران،

والأنفال، والأحزاب"[1]، وعليه فإن نزولها قد تأخر إلى ما بعد غزوة الأحزاب التي كانت في السنة الخامسة من الهجرة، وقد وقع الاختلاف في نزولها منجمة أو جملة واحدة، والذي عليه الأكثر أنها "نزلت منجمة، وقد ورد في الصحيح عن عمر بنِ الخطاب رضي الله عنه أنَّ رجلاً من الْيهودِ قال له: يا أَمير المؤمنينَ آيةٌ في كتابِكمْ تقرؤونها، لو علينا مَعشَرَ اليهودِ نَزَلَتْ لاتخذْنا ذلكَ الْيومَ عيداً، قالَ: أَيُّ آيةٍ؟ قال: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}. قالَ عُمَرُ: قد عرَفْنا ذلكَ الْيومَ، والمَكانَ الذي نزَلَتْ فيهِ على النبيِّ – صلى الله عليه وسلم –، وهوَ قائمٌ بعَرَفَةَ، يوْمَ جُمُعَةٍ وأَنا واللهِ بعَرفة .(2)".

د-عدد آياتها:

"آياتها خمس، تبتدئ من الآية السابعة والعشرين من سورة المائدة وهي قوله تعالى: **{واتْلُ عليهِم نبَأَ ابنَي آدم} وتنتهي بالآية الحادية والثلاثين، وهي قوله تعالى: {فَأَصْبَح مِن النَّآدمين}**. إذ القصة تنتهي أحداثها ووقائعها بها، ويحتمل أن تكون آياتها ستّ ، تنتهي بنهاية الآية الثانية والثلاثين، وهي قوله تعالى: **{مِن أجلِ ذلك كتَبْنا علَى بنِي إسرَائيلَ أنَّه مَن قَتَل نفسًا بِغيْرِ نفسٍ أوْ فَسَادٍ في الأرْضِ...}** إلى قوله: **{ثُمّ إنّ كثيرًا مِنهُم بَعدَ ذلِك في الأرضِ لَمُسْرِفُون}**، وإنما ذكرت أنه احتمال، للخلاف الواقع فيما يتعلق به قوله تعالى: {مِن أجْلِ ذلكَ} وهل يتعلق بالقصة، أو يتعلق بقوله: {كَتَبْنا}"(3)، فمن جعله متعلقاً بما قبله جاز أن يعد آيات السورة ستًّا، ومن خالف وجعله متعلقاً بـــ {كتَبنا} فآيات القصة عنده خمس.

غير أنه قد يقال: إنه حتى لو كان قوله: {مِن أجْلِ} متعلقاً بأحداث القصة وجريمة القتل، فإن هذا أمر خارج عن القصة، فإنه بيان لحكم متعلق ببني إسرائيل جرى عليهم بسبب القصة، ولا يلزم من ذلك أن يكون جزءاً من القصة. لكن يمكن أن يجاب عن هذا الإيراد بأنه من تبعات القصة، وملحقاتها، فجاز التجوز في جعله جزءًا متممًا للقصة للملابسة المذكورة. والله أعلم.

وقد قطع الإمام ابن جرير الطبري بالقول: بأن قوله تعالى **{مِن أجلِ ذلك}** متعلق بما قبله، ولم يحك خلافاً، فدل ذلك على أن هذا القول هو المعروف عند السلف، حيث قال: "يعني تعالى ذكره بقوله: **{مِن أجْلِ ذلك}** مِن جرّ ذلك وجريرتِه وجِنايته، يقول: مِن جرّ القاتل أخاه من ابني آدم، اللذين اقتصصنا قصتهما، الجريرةَ التي جرَّها، وجنايته التي جناها، **{كتَبْنا علَى بنِي إسرائيل}**، فمعنى الكلام: من جناية ابن آدم القاتل أخاه ظلماً، حكمنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا ظلماً"(4).

ج-خصائصها ولطائفها

1. أنها من القصص التي لم تتكرر في القرآن الكريم.
2. أنها من الحوادث والقصص التي وقعت في ابتداء الحياة البشرية.
3. أنها اشتملت على أول خصام يقع في حياة البشرية.

(1) ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، 97/1.

(2) البخاري، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، ح 45، 25/1. مسلم، كتاب الآداب، باب {اليوم أكملت لكم دينكم}، ح 7628، 238/8.

(3) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 175/6.

(4) الطبري، ابن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، 231/10-232.

4. أنها احتوت أول جريمة قتل في حياة البشرية، فكان قابيل أول قاتل من البشر، وهابيل أول مقتول. (1)
5. تضمنّت حفر أول قبر لدفن إنسان في حياة البشرية(2).عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدم الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ» (3)
6. وقد اختصت الآيات بذكر كلمة {الغراب} و {يبحث} فيها ، وكذا قوله: {فطَوّعت} من حيث الصورة.
7. تعاقب الأحداث بصورة سريعة دون فواصل زمنية طويلة، وارتباطَ بعضها ببعض من جهة تعليل الحادثة اللاحقة بالسابقة، وذاك يظهر من كثرة استعمال حرف الفاء في سرد الأحداث: كما في قوله تعالى: {فطَوَّعت لهُ نفسُه قتْلَ أخِيهِ فَقتَله فَأصبَح مِن الْخَاسِرينَ فَبعَث اللهُ غُرابًا يبْحثُ في الأرْضِ لِيُريهُ كيفَ يُوارِي سَوْأة أخِيه..} إلى أن قال: {فأصْبَح مِن النَّادمين}.
8. التعبيرات الدقيقة المعبرة الجامعة كما في كلمة {فطَوَّعت} من حيث دلالتها على مدى ما حصل للقاتل من تردد وتدافع وتجاذب وتحارب قبل الإقدام على الجريمة الشنيعة، وسنبين ذلك إن شاء الله في مظنته من هذا البحث. (4)

د-أهدافها:

من خلال النظر في الآيات التي وردت فيها القصة يتبين:

1. أن من أهداف القصة بناء المجتمع الإسلاميّ على أسس من الإيمان والطاعة والخوف من الله، ذلك الخوف الذي يبعد صاحبه عن الظلم، ويحمله على إبداء النصح في أحرج الأوقات لألدّ أعدائه.
2. كما أن من أهدافها الزجر عن التعدي والتطاول على النفوس الطاهرة، وحماية المجتمع المسلم وصيانته من الفساد وتضييع حقوق العباد، وذلك بذكر نموذج صالح مسالم طيب يريد الخير، ونموذج آخر سيء انتهت به القصة إلى عاقبة مريرة.
3. وفيها شحذ للأذهان، وتنبيه للعقول والأفهام، للنظر في حال الظالمين، وما يحل بهم من الندامة والخسارة والبوار، وهو مدعاة إلى الاعتبار، وموعظة تأخذ بقلوب أولي النهى والأبصار. (5)

ه. <u>موضوع الآيات</u>

"في هذه الآيات والتي تليها بيان بعض الأحكام التشريعية الأساسية في الحياة البشرية، وهي التي تتعلق بحماية النفس والحياة، والنظام العام، والسلطة التي تقوم عليه، في ظل شريعة الله. وقد بدأها سبحانه بقصة ابني آدم، وهي قصة تكشف عن طبيعة الجريمة وبواعثها في النفس البشرية" (6).

---

(1) ينظر: عبدالعظيمالمطعني خصائصالتعبير القرآنيوسماتهالبلاغية،ص40

(2) ينظر: آيات القصة.

(3) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه، 430/1، ح 3157، مسلم، صحيح مسلم، كتاب البيوع، باب بيان إثم من سن القتل، ح 4395، 106/5.

(4) ينظر: الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص21.

(5) ينظر: أبو الطيب، فتح البيان في مقاصد القرآن، 143/3.

(6) القطان، تيسير التفسير، 393/1.

المطلب الثاني: مناسبة القصة من السورة

"مناسبة هذه الآيات، هي أن الصورة التي عرضتها الآيات السابقة لبنى إسرائيل كانت صورة معتمة للإنسان، فاضحة، حين تفسد فطرته، وتضيع معالم إنسانيته، فيدفع بكلتا يديه الخير المسوق إليه، وينفخ بفمه في شعلة النور المنصوبة لهدايته.. مؤثر أن يظل هكذا في الظلام والضلال. ولأنّ الإنسانية ليست كلها على هذه الصورة الكئيبة المعتمة، التي تتمثل فى بنى إسرائيل، إذ إنفي الإنسانية خيراً كثيراً، وفى الناس أخيار كما في الناس أشرار وفجار– فكان من تمام العرض للإنسانية أن يعرض جانبها الطيب كما عرض جانبها الخبيث" (1)

أولا: المناسبات بين الآيات

أ–المناسبة بين القصة وما قبلها: قد ذكرت أوجه من المناسبة والتي ذكرها الامام الرازي

1–إنه قد تقدم قوله تعالى: **{يا أيّها الّذين آمَنوا اذْكروا نعمتَ الله عليكُم إذ همَّ قوم أن يبسُطوا إلَيكم أيدِيَهم فكفَّ أيدِيَهم عنْكم}** [المائدة: 11] وقد دلّت الآية علىأن الأعداء يريدون إيقاع البلاء والمحنة بأهل الإيمان، " فذكر تعالى قصصًا كثيرة تسليةً للمؤمنين وتخفيفًا عليهم، وتنبيهًا على أن كل من خصّه الله بالنعم العظيمة في الدين والدّنيا فإن الناس ينازعونه بغيًا وحسدً

2–إن القصة متعلقة بقوله تعالى: **{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جاءَكم رسولُنا يُبيّن لكم كثيرًا مِما كُنْتم تُخْفونَ مِن الْكِتابِ ويَعفُو عَن كَثِيرٍ}** [المائدة: 15] وهذه القصّة هي مما أخفوه من التوراة.

3–إن هذه القصة متعلقة بقصة محاربة الجبارين الواردة قبلها في قوله تعالى: **{قالُوا يا مُوسَى إنَّ فِيها قَومًا جبَّارِين...}** [المائدة: 22]. فيكون وجه التعلق أن سبيل أسلافهم في الندامة مثل سبيل إقدام ابن آدم على قتل أخيه.

4–إنها متعلقة بقوله تعالى حكاية عن أهل الكتاب: **{نَحنُ أبناءُ اللهِ وأحِبَّاؤُه}**[المائدة:18] فيكون وجه التعلق والارتباط هو أنه لا ينفعهم كونهم من أولاد الأنبياء مع كفرهم، كما لم ينتفع ولد آدم عند معصيته بكون أبيه نبياً معظماً عند الله تعالى.

5–إن وجه التعلق هو اشتراك اليهود وابن آدم في الحسد ومغبته، فإنه لما كفر أهل الكتاب بمحمد صلى الله عليه وسلم حسدًا، أخبرهم الله تعالى بخبر ابن آدم، وأن الحسد أوقعه في سوء العاقبة. (2)

وقد نظر في كل منها إلى نقطة اشتراك جامعة، فتأتى له ذلك في كل منها، لكن البعد والفواصل الطويلة قد حالت دون ترجيح بعضها، كما في رد المناسبة إلى آية: **{اذكُرُوا نِعمت اللهِ عَليْكم}**[المائدة: 11] فإن بينها وبين القصة خمس عشرة آية، فالأوجه –والله أعلم– أن تكون القصة مرتبطة بالقصة قبلها مباشرة، للمجاورة بينهما، وذكر ابن عاشور وجه الارتباط بين القصتين من جهة التماثل تارة وجهة التضاد تارة أخرى فقال: "والمناسبة بينها وبين القصة التي قبلها مناسبة تماثلٍ ومناسبة تضادٍّ، فأما التماثل فإن في كلتيهما عدمَ الرضا بما حكم الله تعالى، فإن بني إسرائيل عصوا أمر رسولهم إياهم بالدخول إلى الأرض المقدسة، وأحد ابني آدم عصى حكم الله تعالى بعدم قبول قربانه لأنه لم يكن من المتقين، وفي كلتيهما جرأة على الله بعد المعصية، فبنو إسرائيل قالوا: **{فاذْهَب أنتَ وربُّك}** [المائدة: 24]، وابن آدم قال: لأقتلن الذي تقبل الله منه، وأما التضاد في

(1)عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد 1390هـ)التفسير القرآني للقرآن: الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة :1072/3.

(2) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب/التفسير الكبير، 336/11 – 337.

إحداهما إقدامًا مذمومًا من ابن آدم، وإحجامًا مذمومًا من بني إسرائيل، وإن في أحداهما اتفاق أخوين هما موسى وأخوه على امتثال أمر الله تعالى، وفي الأخرى اختلاف أخوين بالصلاح والفساد"[1].

ب-المناسبة بين افتتاحية الآيات وخاتمتها

افتتحت القصة بالأمر بتلاوة القصة، واختتمت بذكر ندامة القاتل على ما لحقه من تعب جراء عدم اهتدائه أولاً إلى دفن أخيه المقتول. ولعل من وجوه المناسبة بين الافتتاح والخاتمة أن تلاوة القصة موصلة إلى النتيجة المنتظرة وهي الخسارة والندامة.

ثالثًا: العرض الإجمالي للقصة

"يأمر الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يتلو على قومه خبر ابني آدم حين قرب كل واحد منهما قربانًا، فتقبل الله من أحدهما قربانه، ولم يتقبل من الآخر، فأضمر هذا الآخر الحسد في نفسه لأخيه، ورتب على ذلك تهديد بالقتل، مؤكداً لذلك بقوله: لأقتلنك، فبين له أخوه السبب في عدم قبول قربانه قائلاً: إنما يتقبل الله من المتقين، أي لا من العاصين، ثم أكد له أنه لا يجاريه في عمله، ولا يتبعه على فعله، وأكد له أنه إن حاول قتله، ومد إليه يده بسوء، لم يمد هو إليه يده ولم يحاول قتله، وعلل ذلك بأنه يخاف الله رب العالمين في قتله، وقال له مؤكدًا: أريد أن تحمل إثم قتلي وإثم الذي كان منك قبل قتلي، فلم ينزجر ولم يرتدع، بل زينت له نفسه قتل أخيه، فقتله فخسر دنياه وأخراه وأسخط عنه مولاه، فلما قتله لم يدر ما يصنع به؛ لأنه كان أول ميت على وجه الأرض من بني آدم، فبعث الله غرابا يثير التراب من الأرض على غراب ميت ليريه كيف يستر جثة أخيه، فلما رأى ذلك دعا على نفسه بالويل والثبور وقال: أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النآدمين على حمله وعلى ما ناله من مشقة في ذلك، وبعد الانتهاء من القصة ذكر الله تعالى أنه بسبب ما جرى من ابن آدم القاتل فرضنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير قود أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن حرَّمها وتورع عن قتلها فكأنما أحيا الناس جميعاً، ولقد جاءت بني إسرائيل رسل الله بالبينات وبان لهم صدق ما جاؤوهم به، ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمتجاوزون حد الحق إلى الباطل"(2)

المبحث الثاني

المطلب الأول: تفاصيل بداية القصة

مقاطع القصة

المقطع الأول: واتل عليهم نبأ ابني آدم

قوله تعالى: **{واتْلُ عَلَيهِم نبَأَ ابْنَي آدم بِالْحَقّ}** يدل على أن للقصة شأناً عظيماً ومعاني معبرة وعظات مؤثرة، وذلك من جهة أن الله تعالى وجه الأمر إلى نبيه بتلاوتها على الناس، وسواء كان المراد بالناس بني إسرائيل أو ما هو أعم[3]، مع أن الذي يظهر أن الأظهر أنه يعم كل من يصلح للخطاب من اليهود وغيرهم، ليرتدع المخالف ويعتبر الموافق، ولا يضر كون الحديث في الآيات المتقدمة عن اليهود ودخولهم الأرض المقدسة، وذلك لأنها قصة أخرى، وهذه القصة ليست تكملة لها، والأصل تعميم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 168/6.

(2) الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 316-317.

(3) ينظر: ابن حيان، الخلاف في ذلك في البحر المحيط، 475/3.

الخطاب لا تخصيصه إلا أن يدل دليل واضح على التخصيص، فجاز أن يرجع الضمير على ما هو أعم من بني إسرائيل، كما في قوله تعالى: **{وَاتْلُ عَلَيهِم نَبَأَ الذِي آتَيْنَاهُ آياتِنا فَانْسَلَخ مِنها}** [الأعراف: 175]، وكما في قوله: **{واتْلُ عليهِم نبَأَ نُوح}** [يونس: 71].

وهذا النبأ قد أخبر الله تعالى عنه بالحق، وأمر نبيه أن يتلوه بالحق، فكلمة **{الحق}** الواردة في القصة لها دلالاتها وأبعادها، فكل ما قصه الله علينا حق لا باطل معه، يقين لا شك فيه، إذ هو كلام أصدق القائلين، المطلع على دقائق الأمور وظواهرها وبواطنها: **{وَمَن أَصْدَقُ مِن اللهِ حَدِيثًا}** [النساء: 87]، **{وَمنْ أَصْدَقُ مِن اللهِ قِيلًا}** [النساء: 122].

"وقد ذكر الله تعالى ابني آدم، ولم يذكر لهما اسمًا، لأن الاسم هنا ليس مجال عبرة، وإنما العبرة بوقائع القصة وأسبابها ونتائجها وما يؤخذ منها من عبر، والذي عليه الجمهور من الصحابة فمن بعدهم: أن اسم أحدهما قابيل، وهو القاتل، واسم الآخر هو هابيل، كما ذكره ابن كثير"[1]. "والراجح الذي عليه الأكثرون أنهما ولدَاه من صلبه كما هو المتبادر الظاهر من لفظ القرآن الكريم، لا أنهما أخوان من بني إسرائيل، كما نقل عن الحسن البصري، لكنه لم يثبت عنه"[2]، ولو فرض ثبوته فلا يظهر رجحانه، بدلالة جهل القاتل للدفن، وهذا لا يتأتى فيمن كان من بني إسرائيل، ومما يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم "في ابن آدم القاتل لأنه أوّل من سَنَّ القَتْل" [3] فكيف يتأتى هذا فيمن سُبق بآلاف القاتلين؟ وقد حكى الإمام الطبري إجماع أهل الأخبار والسير والعلم بالتأويل على أنهما كانا ابني آدم لصلبه وفي زمنه، قال:"وكفَى به شاهدًا" [4].

المقطع الثاني: إذ قرّبا قربانا:

هذا هو الحدث الأول في القصة، وهو تقديم كل واحد منهما لقربان، ويلاحظ هنا أن الآية لم تتعرض لأي سبب لتقديمه، فإما أن لا يوجد سبب أو لا يكون في ذكره كبير فائدة، لكن ورد في بعض الآثار ما يفيد التقرب من غير سبق سبب، "فقد روى عن ابن عباس، قال: كان من شأنهما أنه لم يكن مسكين فيُتصدقَ عليه، وإنما كان القربان يقرّبه الرجل، فبينا ابنا آدم قاعدان، إذ قالا: لو قربنا قرباناً، وكان الرجل إذا قرب قرباناً فرضيه الله أرسل إليه ناراً فأكلته، وإن لم يكن رضيه الله خَبَت النار(5)، فقربا قرباناً، وكان أحدهما راعياً، وكان الآخر حراثاً، وإن صاحب الغنم قرّب خير غنمه وأسمنَها، وقرّب الآخر أبغض زرعه، فجاءت النار، فنزلت بينهما، فأكلت الشاة وتركت الزرع، وإن ابن آدم قال لأخيه: أتمشي في الناس وقد علموا أنك قربت قرباناً فتقبل منك ورُدَّ عليّ؟ فلا والله، لا تنظر الناسُ إليَّ وأنت خير مني، فقال: لأقتلنك. فقال له أخوه: ما ذنبي؟ إنما يتقبل الله من

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 82/3.

(2) ينظر: الطبري، جامع البيان، 209/10، أبو حيان، البحر المحيط، 473/3. والأثر: رواه الطبري، وفيه سفيان بن وكيع بن الجراح، قال فيه الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب، 70/24: (كان صدوقا، إلا أنه ابتلي بوراقه، فأدخل عليه ما ليس من حديثه، فنصح، فلم يقبل، فسقط حديثه). وفيه أيضا: عمرو بن عبيد المعتزلي قال فيه ابن أبي حاتم: "متروك الحديث"، وقال أحمد: "ليس بأهل أن يحدث عنه"، وقال ابن عون: "يكذب على الحسن". ينظر: تهذيب التهذيب، 70/24.

(3) تقدم تخريجه ص 6 عند الكلام على خصائص السورة ومميزاتها.

(4) الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 209/10.

(5) أي سكن لهبها. ينظر: ابن قتيبة، ص261.

المتقين"[1].

قال الحافظ ابن كثير: " فهذا الأثر يقتضي أن تقريب القربان كان لا عن سبب ولا عن تدارؤ[2] في امرأة، كما تقدم عن جماعة مَنْ تقدم ذكرهم، وهو ظاهر القرآن: **{إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}** فالسياق يقتضي إنه إنما غضب عليه وحسده لقبول قربانه دونه"[3].

ودلالة الأثر على ما ذكره الحافظ ابن كثير واضحة، غير أنه –كما تبين لك– ضعيف، في سنده عدة ضعفاء، فيُكتَفى بظاهر الآية، لولا ورود ما يدل على أن قابيل (القاتل) كان ينازع أخاه هابيل في حقه، فكان تقريب القربان من كل منهما لفض النِّــزاع، فعن ابن خُثيم قال: "أقبلت مع سعيد بن جبير فحدثني عن ابن عباس قال: نُهِيَ أن تنكح المرأة أخاها توأمَها، وأمِر أن يَنكحها غيرُها من إخوتها، وكان يولد له في كل بطن رجل وامرأة، فبينما هم كذلك، وُلد له امرأة وضيئة، ووُلد له أخرى قبيحة دميمة، فقال أخو الدميمة: انكحني أختك وأُنكِحُك أختي، قال: لا، أنا أحق بأختي، فقربا قربانا، فتُقُبِّل من صاحب الكبش، ولم يتقبل من صاحب الزرع، فقتله"[4]. وهذا الأثر أقوى وأثبت من الأثر المتقدم.

وكذا لم تتعرض الآيات إلى نوع القربان الذي قدّمه كل واحد منهما، وذلك أيضا لأنه ليس في ذكره ما تعظم به العبرة، والقرآن يركِّز على ما كثرت فائدته وعظم نفعه واشتدت الحاجة إليه، والمتصفح للآثار الواردة في الباب يرى أن من أجودها سندًا ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: **{إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا}** قال: "فقربا قربانهما، فجاء صاحب الغنم بكبش أعين أقرن أبيض، وصاحب الحرث بصُبرة من طعام، فقبل الله الكبش فخزنه في الجنة أربعين خريفا، وهو الكبش الذي ذبحه إبراهيم صلى الله عليه وسلم"[5].

المقطع الثالث: فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر

ووجه مناسبة هذا المقطع لما قبله واضح، وهو أنه جزء تكميلي لأحداث القصة ووقائعها، وبيان لنتيجة منتظرة لتقديم القربانين، فهي إما القبول وإما الرد، لكن من أين عرفوا المقبول من المردود؟ والجواب: ما تقدم في الأثر المتقدم من أكل النار للصدقة المقبولة، والأثر وإن كان ضعيفًا كما تقدم، غير أن ذلك كان معهودًا في الأمم السابقة، ومن ثم قال الله تعالى في اليهود: **{الذين قالُوا إِنَّ اللهَ عهِد إِلَينا ألا نُؤمِنَ لِرسُول حتَّى يأتِيَنا بقُربَانٍ تأكُله النَّار قُل قَد جاءكُم رسُل مِن قَبْلِي بِالْبَيِّناتِ وبِالَّذِي قُلتُم فَلِم قَتَلْتُموهُم إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ}** [آل عمران: 183]. ففي الآية إثبات ذلك في قوله: **{وبِالَّذِي قُلتُم}**.

وقد جاء في الصحيحين من حديث "أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قصة غزاة نبي من الأنبياء وفيها فجمع الغنائم فجاءت – يعني: النار – لتأكلها، فلم تطعمها، فقال: إن فيكم غلولا إلى أن قال: فجاءوا برأس مثل رأس بقرة

(1) الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 203/10 – 204. وإنما أوردت السند ليعلم به وجه الضعف فيه.

(2) أي اختلاف. ينظر: ابن قتيبة، غريب القرآن، ص54.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 85/3.

(4) المصدر نفسه، 83/3. والأثر رواه الطبري أيضا مع زيادات. جامع البيان في تأويل القرآن، 223/10.

(5) أورده ابن كثير في تفسيره83/3، وجوّد إسناده، وكذا جود سنده السيوطي في الدر المنثور، 55/3. وما وجدته في تفسير ابن أبي حاتم.

من الذهب فوضعها فجاءت النار فأكلتها" (1).

ومع هذا فإنا لا نجزم بأن علامة قبول قربان أحد الأخوين هو ما ذكر، وذلك لأن الصريح غير صحيح، والصحيح غير صريح، وعليه فربما كانت الدلالة ما ذكر وهو الأقرب، أو علموه بخبر من السماء أخبرهم به نبي الله آدم. والله أعلم.

المقطع الرابع: قال لأقتلنك

قال تعالى: {قال لأقتلنك}. هذا هو بداية هذا المقطع. والمناسبة بينه وبين المقطع السابق هو أنه تعبير عن موقف الأخ الظالم تجاه أخيه بعد أن بدت أمارات القبول، ولم يحصل الظالم على المأمول، واختص أخوه بالقبول والفضل، وباء هو بالرد والرفض، فاختار للتعامل مع موقف الخزي أسوء معاملة، ولم يراجع نفسه ولم يحاسبها ليعلم أن الخلل منه، فهدد أخاه وأوعده بأبشع جريمة ترتكب بعد الشرك بالله تعالى، وأكد له ذلك بما حضره من مؤكدات حيث قال: **{لأَقْتُلَنَّكَ}**. قال أبو حيان: "هذا وعيد وتهديد شديد، وقد أبرز الخبر مؤكداً بالقسم المحذوف، أي لأقتلنك حسداً على تقبل قربانك، وعلى فوزك باستحقاق الجميلة أختي"(2).

ويلاحظ في الموقف أنهما قد تحدثا عن القتل حديث الشيء المعلوم المعهود الذي ليس به خفاء، مع أنه لم يسبق أن قتل قبلها أحد. وقد يجاب عن هذا بأن هذا مختص ببني آدم، والقتل أعم من أن يكون في بني آدم وحدهم، فإنه يشاركهم فيه غيرهم من الكائنات الحية الموجودة على سطح الأرض، فلا يبعد أن يكونا عهداه في الحيوانات، لا سيما وقد سبق أن هابيل كان صاحب غنم، والأغنام تربى لتذبح وتؤكل. هذا ما ظهر. والله أعلم.

المقطع الخامس: ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك

وهذا الموقف تبع لما جرى من الأخ الظالم مع أخيه المظلوم من التهديد الصريح المؤكد بالقتل، وهنا اتخذ الأخ المظلوم تدابير سلمية لمنع أخيه مما عزم عليه، ومن ذلك:

1-تذكيره بأنه أتي من قبل نفسه، وإليه الإشارة بقوله له: **{إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}** فلم يواجهه بالعتاب، بل أشار له إشارة، فأراد بهذا الكلام: أني اتقيت الله وخفته وقمت بما ألزمني به، واجتنبت المعاصي، وبذلت أفضل ما كان عندي، وأخلصت له نيتي، فتقبل قرباني، فما الذي جنيته عليك، وأي اعتداء مني وقع عليك حتى تقتلني، أما أنت فلم تسلك مسلكي، ولم تتبع طريقتي، ولم تتق الله كما اتقيته، فعوقبت برد القربان، وبؤت بالحرمان والخسران، فما عليك إلا أن تتقي الله ولا تنازعه في أمره، لِيمُن عليك بالقبول، وييسر لك طريق الوصول إلى المأمول.

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: (وأصح الأقوال في تفسير **{المتَّقين}** هنا: أي: المتقين لله في ذلك العمل، بأن يكون عملهم خالصاً لوجه الله، متبعين فيه لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم"(3).

---

(1) البخاري، كتاب الخمس، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: أحلت لكم الغنائم، ح2956، 1136/3، مسلم، كتاب البيوع، باب تحليل الغنائم لهذه الأمة خاصة، ح4576، 145/5.

(2) أبو حيان، البحر المحيط، 476/3.

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص: 288. وقوله: (متبعين فيه لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم) ليس له موقع هنا إن كان يريد المعهود وهو محمد صلى الله عليه وسلم، فإن الكلام هو لابن آدم الأول، ولم يكن لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم في ذاك الوقت وجود،

2–العزم على الاستسلام وعدم المقابلة بالمثل: وذلك واضح من قول الأخ الصالح: **{لَئِنْ بَسطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أنا بِباسِطٍ يدِيَ إِليكَ لأَقْتُلَكَ}** أي لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله، فأكون وأنت سواء في الخطيئة **{إِنِّي أَخَافُ اللهَ ربَّ الْعالمين}** أي أخافه من أن أصنع كما تريد أن تصنع، بل أصبر وأحتسب[1]. قال أبو السعود: (وفيه من إرشاد قابيل إلى خشية الله تعالى على أبلغ وجه وآكدِه ما لا يخفى، كأنه قال: "إني أخافه تعالى إن بسطت يدي إليك لأقتلك أن يعاقبني، وإن كان ذلك مني لدفع عداوتك عني، فما ظنك بحالك، وأنت البادي العادي؟! وفي وصفه تعالى بربوبية العالمين تأكيد للخوف).[2].

3–التهديد بعذاب الآخرة: وذلك في قوله: **{إِنـــِّي أُرِيدُ أَن تَبوءَ بإِثمِي وإِثمِك فتكونَ مِن أَصحابِ النَّار وذلك جزاءُ الظَّالمين}** يريد: أن عدم إقدامي على قتلك سببه هو أن تتحمل إثمين: الإثم الذي ارتكبته قبل قتلي، والإثم الذي يلحقك بسبب قتلي، وحينئذ ستكون من أصحاب النار، لأنك ستكون ظالماً، وهذا هو جزاء الظالمين، فهذه عظة له بليغة، وزجر وتخويف، لكن ماذا تنفع الذكرى من قسا قلبُه وضاق عن قبول الحق صدره.

ولكن قد يرد هنا سؤال، وهو أنه كيف جاز لهذا الأخ أن يريد شقاوة أخيه، وجواب ذلك: أن هذه الإرادة ليست مقصودة لذاتها، وإنما جاءت تبعاً لأمر لم يكن للأخ الصالح منه مناص؛ فقد أورد القاسمي عن الناصر في الانتصاف قوله: (فأما إرادته لإثم أخيه وعقوبته فمعناه: إني لا أريد أن أقتلك فأعاقَب. ولمَّا لم يكن بدٌّ من إرادة أحد الأمرين، إمَّا إثمَه، بتقدير أن يدفع عن نفسه فيقتلَ أخاه، وإمَّا إثمَ أخيه، بتقدير أن يستسلم، وكان غيرَ مريدٍ للأول، اضطُر إلى الثاني، فلم يُرِد إذاً إثم أخيه لعَينِه ، وإنما أراد أنّ الإثم هو بالمدافعة المؤدية إلى القتل –ولم تكن حينئذٍ مشروعة– فلزم من ذلك إرادةُ إثمِ أخيه. وهذا كما يتمنّى الإنسان الشهادة، ومعناها: أن يبوء الكافر بقتله وبما عليه في ذلك من الإثم، ولكن لم يقصِد هو إثمَ الكافر لعينه، وإنما أراد أن يبذُل نفسه في سبيل الله رجاء إثم الكافر بقتله ضِمناً وتبَعاً. والذي يدل على ذلك: أنّه لا فرق في حصول درجة الشهادة وفَضِيلَتَها بين أن يموت القاتل على الكفر وبين أن يُختم له بالإيمان، فيَحبَط عنه إثم القتل الذي به كان الشهيد شهيداً. أعني بقي الإثم على قاتله أو حبِط عنه، إذ ذلك لا يَنتقص من فضيلة شهادته ولا يزيدها، ولو كان إثم الكافر بالقتل مقصوداً لاختلف التمني باعتبار بقائه وإحباطه، فدلّ على أنه أمر لازم تبعٌ، لا مقصود. والله أعلم) [3].

المقطع السادس: حالة القتل

وهذا المقطع متمم لما قبله، فإن هذا الأخ الظالم كانت له نفس شريرة، تسهل عليه الإقدام على القتل، وأي قتل؟ قتل الأخ. وقد غلبت هذه النفس عليه، فسقط سقوطاً كاملاً أمام ضغوط هذه النفس وأوامرها، وانقاد لها، وجرى خلف رغبتها، فأقدم على الجريمة النكراء، وكان سابقاً لغيره فيه، وإماماً لمن بعده في ارتكابها، حيث قتل الأخ التقي النقي، فكان من زمرة الخاسرين، كما قال تعالى: **{فَطَوَّعَتْ لهُ نفسُه قتلَ أخيهِ فقتَلَهُ فأَصبَح مِن الْخاسِرين}**.

فضلا أن تكون له شريعة متبعة، وإن كان يريد به آدم عليه السلام، وأنه كان نبيا يوحي إليه ويكلمه الله فذاك. ولا يبعد أن يكون قد سبقه بها قلمه لكثرة استعماله لها في كلامه وفي كتاباته لشدة حرصه على السنة.

(1) ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 85/3.

(2) ينظر: المصدر نفسه، 85/3.

(3) القاسمي، محاسن التأويل، 110/4.

وهذا الأخ لم يقدم على القتل لأول وهلة، بل كان متردداً، تتجاذبه أفكار وتخيلات، وعزم على الإقدام ثم فتور في العزيمة، يدل على ذلك التعبير بلفظ التطويع في قوله تعالى: **{فَطَوَّعَتْ لهُ نفسُه قَتْلَ أخِيه}**.

يقول محمد سيد طنطاوي" والتعبير بقوله تعالى: **{فطَوَّعتْ}** تعبير دقيق بليغ، فإن هذه الصيغة –صيغة التفعيل– تشير إلى أنه كانت هناك بواعث متعددة تتجاذب نفسه، كانت هناك بواعث الشر التي تدعوه إلى الإقدام على قتله، ودوافع الخير التي تمنعه من الإقدام على قتل أخيه، وأخيراً تغلبت دوافع الشر على دوافع الخير، فقتل أخاه"[1].

وقد صوَّر الإمام الرازي هذا المعنى تصويرًا حسَنا فقال: "قال المفسرون: **{فطوَّعَتْ}** أي سهلت له نفسه قتل أخيه. وتحقيق الكلام: أن الإنسان إذا تصوّر القتل العمدَ العُدوانَ وكونَه من أعظم الكبائر، فهذا الاعتقاد يصير صارفاً له عن فعله، فيكون هذا الفعل كالشيء العاصي المتمرّد عليه الذي لا يطيعه بوجه البتة، فإذا أوردت النفس أنواع وساوسها، صار هذا الفعل سهلاً عليه، فكأن النفس جعلت بوساوسها العجيبة هذا الفعل كالمطيع له، بعد أن كان كالعاصي المتمرد عليه، فهذا هو المراد بقوله: **{فَطَوَّعت له نفسُه قتلَ أخِيه}**".[2]

وأما كيفية قتله له فلم يتعرض لها القرآن الكريم، لأن ذلك خارج نطاق العبرة، وقد أورد الطبري فيذلك عدة روايات:

الأولى: "قتله بصخرة: فعن ابن عباس وابن مسعود وناس من أصحاب رسول الله ﷺ: أنه طلبه ليقتله فراغ(3) الغلام منه في رؤوس الجبال، وأتاه يوماً من الأيام وهو يرعى غنما له في جبل وهو نائم، فرفع صخرة فشدخ بها رأسه، فمات، فتركه بالعراء"(4). وفي سندها لِين، كما هو موضح في الهامش.

الثانية: قتله بحجر: فعن ابن جُرَيج قال: "قتله حيث يرعى الغنم، فأتاه فجعل لا يدري كيف يقتله، فلَوَى "(5) برقبته وأخذ برأسه، فنـــزل إبليس وأخذ دابة أو طيراً، فوضع رأسه على حجر، ثم أخذ حجراً آخر فرضخ به رأسه، وابن آدم القاتل ينظر، فأخذ أخاه فوضع رأسه على حجر، وأخذ حجراً آخر فرضخ به رأسه"(6). ثم ساق سنداً –فيه مجهول– إلى مجاهد وقال: "فذكر نحوه".

وهذه الرواية مع ما في سندها من ضعف، تدل على أن الأخ الصالح كان في غاية الضعف والهوان، ثم إن فيها دلالة على أن القاتل لم يكن يعرف كيفية القتل، وهذا أيضاً مما يحتاج قبوله إلى نظر، لا سيما وقد دلت الآية على أن الأخوين كانا يعرفان القتل، فإنهما ذكرا القتل، وهدّد أحدهما الآخر به، والأخ الصالح ذكر بعض ما يحتاج إليه القتل لتنفيذه، وهو بسط اليد، فالأقرب

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط، 122/4 – 123.

(2) تفسيره مفاتيح الغيب، 165/11.

(3) أي مالَ وحادَ. ينظر: الرازي، مختار الصحاح، ص267.

(4) الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 222/10. وفي سنده أسباط بن نصر الـــهَمْداني، قال فيه الحافظ ابن حجر: "صدوق، كثير الخطأ، يُغرِب"، وفيه أيضا: إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدّي، قال فيه الحافظ: "صدوق، يَهِم، ورمي بالتشيع". ينظر: ابن حجر، تقريب التهذيب، 98/1، 108.

(5) ينظر: ابن حجر، تقريب التهذيب، 98/1، 108.

(6) الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 222/10. وفي سنده سنَيد (الملقب بالحسين) بن داود المَصيصي، قال فيه الحافظ: "ضعُّف مع إمامته ومعرفته، لكونه كان يلقن حجاج بن محمد شيخه"، وفيه أيضا: حجاج بن محمد المَصيصِي، قال فيه الحافظ: ثقة ثبت، لكنه اختلط في آخر عمره لما قدم بغداد قبل موته". ينظر: تقريب التهذيب، 153/1، 257.

أنهما كانا يعرفان القتل وكيفيته.

وقد أورد الطبري الكيفيتن ولم يقطع بأي منهما، معلِّلا ذلك بأنه ليس عندنا في كيفية القتل من خبر يقطع العذر حيث قال: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله عز ذكره قد أخبر عن القاتل أنه قتل أخاه، ولا خبر عندنا يقطع العذر بصفة قتله إياه، وجائز أن يكون على ما نحو ما قد ذكر السُّدِّي في خبره (يريد: الأثر المروي عن ابن عباس وغيره)، وجائز أن يكون كان على ما ذكره مجاهد، والله أعلم أيُّ ذلك كان. غير أن القتل قد كان لا شك فيه"(1).

وما قاله رحمه الله جيد، غير أنه ينبغي أن يضاف إليه: "وجائز أن يكون على غير ما ذكراه".

الثالثة: قتله بحديدة: فقد أورد ابن كثير أثرا رواه ابن أبي حاتِم عن محمد بن علي بن الحسين، وفيه: "وكان (أي قابيل) يتواعده بالقتل، إلى أن احتبس هابيل ذات عشية في غنمه، فقال آدم: يا قابيل، أين أخوك؟ قال: قال: وبعثتني له راعيا؟ لا أدري. فقال له آدم: ويلك يا قابيل. انطلق فاطلب أخاك، فقال قابيل في نفسه: الليلةَ أقتله. وأخذ معه حديدة فاستقبله وهو منقلب، فقال : يا هابيل، تُقبل قربانك ورُدّ عليَّ قرباني، لأقتلنّك، فقال هابيل: قرَّبتُ أطيب مالي، وقربتَ أنت أخبث مالك، وإن الله لا يقبل الله إلا الطيب، إنما يتقبل الله من المتقين، فلما قالها غضب قابيل فرفع الحديدة وضربه بها، فقال: ويلك يا قابيل أين أنت من الله؟ كيف يجزيك بعملك؟ فقتله فطرحه في جَوبة(2) من الأرض، وحثى عليه شيئا من التراب"(3).

وهذا الخبر يدل ظاهره على أن القاتل دفَن أخاه بعَيد قتله إياه، وأنه لم يصبه أي نصب أو تعب في سبيل ذلك، وهو خلاف ما يدل عليه الكتاب العزيز من أنه لم يهتد لمواراته ودفنه في التراب إلا بعد بعث الغراب، وأنه أصابته حسرة وندامة، وكثير من المفسرين على أن ندمه كان من أجل طول تعبه وعدم اهتدائه إلى مواراة أخيه. قال الشيخ أحمد شاكر في نقده لهذه الرواية وغيرها مما أورده ابن كثير بشأن هذه القصة: "هذا من قصص أهل الكتاب ، ليس له أصل صحيح ، ثم قدسا قال حافظ المؤلف هنا آثارا كثيرة في هذا المعنى ، مما امتلأت به كتب المفسرين، وقد أعرضنا عن ذلك ، وأبقينا شيئا منها هو أجودها إسنادا ،على سبيل المثال لا على سبيل الرواية الصحيحة المنقولة" (4).

المقطع السابع: فأصبح من الخاسرين

وهذا المقطع مرتب على المقطع قبله، فإن الخسارة قد نتجت عن جريمة القتل، حيث رتب الله تعالى الخسارة على القتل، فدل على أن مبدأ الخسارة كان من لحظة قتله له، وأنه لم يكن قبل ذلك من الخاسرين. والخسارة لفظ يحتمل معاني كثيرة، ومن الخسارة: أنه قد صار في الدنيا بلا نصير ومعين، فقد قتل أخاه، وأسخط عنه أمه وأباه، وتعرض لعقوبة ربه، وحُرم من عونه ونصره، فإن القاتل لا تهنأ له حياة، ثم إنه بسبب فعلته هذه صار مذموما في كتاب الله وعلى ألسنة خلقه.

قال ابن كثير: "والظاهر: أن قابيل عوجل بالعقوبة، كما ذكره مجاهد بن جَبْر أنه علقت ساقه بفخذه يومَ قتلَه، وجعل الله وجهه

(1) الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 10/223-224.

(2) أي حفرة. ينظر: الفَيُّومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، 1/89.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 3/84.

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 3/84، وقول الشيخ أحمد شاكر مثبت في الهامش.

إلى الشمس حيث دارت(1)، عقوبةً له وتنكيلا به. وقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: "ما من ذنب أجدرُ أن يعجِّل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدَّخِر لصاحبِه في الآخرة، مِن البغي وقطيعة الرحم"(2). وقد اجتمع في فعل قابيل هذا وهذا، فإنا لله وإنا إليه راجعون"(3).

وهو أيضًا قد لحقته الخسارة الأخروية من جهة أنه صار من أهل النار، وخسر الحسنات، وباء بإثمه الأول والأخير، وتراكمت عليه الذنوب وتواردت عليه الهموم والكروب ولا تزال تتجدد إلى يوم القيامة، فما من نفس تقتل ظلما إلا كان عليه كفل من دمها، بسبب أنه سن هذه السنة السيئة(4).

المطلب الثاني: قصة الغراب إلى نهاية القصة

مقطع: فبعث الله غراباً

وهذا المقطع مرتب على الذي قبله، فإن الموت يتبعه الدفن، وهذا الشقي لما أقدم على هذه الفعلة النكراء والجريمة الشنعاء لم يهتد إلى أن يدفن أخاه في الغبراء، ولم يدر ما يصنع به، أذ إن أول حالة قتل تقع في البشر، ولم يسبق أن مات من بني آم أحد، وحينذاك بعث الله غراباً ليسترشد به ويعتبر بحاله ويعلم كيف يدفن أخاه ويستر عورته، حيث قال تعالى:**{فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبحَث فِي الأَرْضِ لِيَرِيَه كيفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أخِيه}**.

الحكمة من ارسال الغراب

قالوا في الحكمة من ارسال الغراب دون غيره إن من عادته دفن الأشياء[5]

طريقة التعليم:

قال الله تعالى: **{فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ}** أي بنبش التراب بمنقاره ورجليه بحيث يستخرجه من الأرض، ليعمل ما يشبه الحفرة، والتعبير بالمضارع دال على أن البحث قد استمر مقداراً من الوقت(6).

صرحت الآية بأن الله تعالى أرسل الغراب لهذه المهمة، وأنه إنما نبش الغراب من أجل ذلك، ودلت على أن عمله هذا كان بمرأى من القاتل، وقد دل هذا قوله تعالى: **{لِيُرِيه كيْف يُوَارِي سَوْأَةَ أخِيه}**.

وقد روى الطبري عن ابن عباس وعبد الله ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺقولهم: "لما مات الغلام تركه

(1) رواه الطبري عن الحارث قال: ثنا عبد العزيز، قال: ثنا رجل سمع مجاهدا وذكره. والسند ساقط، الرجل الذي سمع عن مجاهد مجهول، وعبد العزيز هو ابن أبَان بن محمد، قال فيه يحيى بن معين: "كذاب خبيث يضع الحديث"، وقال البخاري: "تركوه". ينظر: المِزّي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، 110/18.

(2) أبو داود، سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في النهي عن البغي، حديث 4902، 693/2، والترمذي، سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب (-)، ح 2511، 664/4، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، 339/2، ح 2537، 339/2.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 92/3.

(4) ينظر: ابن الجَوْزي، زاد المسير في علم التفسير، 338/2. ابن حيان، البحر المحيط، 480/3.

(5) ينظر: التفسير الكبير، 166/11.

(6) ينظر: المصدر نفسه، 166/11.

بالعراء ولا يعلم كيف يُدفن، فبعث الله غرابين أخوين، فاقتتلا، فقتل أحدهما صاحبه، فحفر له، ثم حثا عليه، فلما رآه قال: **{يا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكونَ مِثْلَ هذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي}** فهو قول الله: **{فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ}**. وروى نحوه عن مجاهد. وأورد روايات أخرى عن ابن عباس وغيره لم يرد فيها ذكر الاقتتال، وإنما ورد فيها أن غرابا جاء إلى غراب ميت فحثى عليه من التراب حتى واراه[1].

موقف القاتل من هذا المشهد:

لما رأى القاتل ما كان من هذا الطائر، استحقر علقه واستصغر نفسه أمام هذا الكائن الصغير الذي اهتدى إلى ما يهتد إليه، وهو الإنسان العاقل الواعي، ومن ثم نادى على نفسه بالويل والهلكة، مشيرا إلى الغراب إشارة تحقير قائلا: **{يا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكونَ مِثْلَ هذا الغُرابِ فأُوارِي سَوأة أَخِي}**.قال أبو حيان: "استقصر إدراكه وعقله في جهله ما يصنع بأخيه حتى يعلم –وهو ذو العقل المركب فيه الفكر والرّويَّة[2] والتدبير– من طائر لا يعقل. ومعنى هذا الاستفهام: الإنكار على نفسه والنعي، أي: لا أعجز عن كوني مثل هذا الغراب، وفي ذلك هضم لنفسه، واستصغار لها، بقوله: **{مِثْلَ هذَا الغُرَابِ}** وأصل النداء أن يكون لمن يعقل، ثم قد ينادَى ما لا يعقل على سبيل المجاز، كقولهم: يا عجباً، ويا حسرة. والمراد بذلك التعجب، كأنه قال: انظروا لهذا العَجَب ولهذه الحسرة، فالمعنى: تنبهوا لهذه الهلكة"[3].

دلالة الآية عن الحالة النفسية المتوترة عند القاتل

المتأمل في كلمة **{يا ويلتى}** يجد أنها تدل على الحالة النفسية العصيبة التي وقع فيها القاتل في هذه المرحلة من حياته، فهي تعبر عن الألم النفسي الذي أصابه بعدما شاهد الغراب وعمَلَه، وفي ذلك يقول الشيخ محمود الشعراوي: (**"**إذن فالويل: الهلاك، و " ويلة " تعني أيضا الهلاك، وماذا تعني " يا ويلتي "؟ إننا نعرف أن النداء يكون بـــ " يا " فكيف نُنادي الويل والهلاك؟ وهل يُنادي غيرَ العاقل ؟نعم، يُنادي؛ لأنه مادام الويل والويلة: الهَلاكَ. كأنك تقول: أنا لم أعد أطيق ما أنا فيه من الهم والغم، ولا يُخلصني فيه إلا الهلاك، يا هلاكي تعال فهذا وقتك! إذن فقوله: " يا ويلتي " يعني يا هلاك تعال. والمتنبي فطِن لهذه المسألة وقال:

كفَى بكَ داءً أن ترَى الموتَ شافِيا وحسْبُ المنـــايا أنْ يـــكُنّ أمَانِيَا[4]

فأي داء هذا الـــذي تقـــول فـــيه: يأرب أرحني بالموت!! إذن فالذي يراه من ينادي الهلاك هو أكثر من الموت. الـــمعنى الأول: أنك تنادي الهلاك أن يحضر؛ ولذلك يقول الحق:**{وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِـــينَ مِـــمَّا فِيهِ وَيَقُولُون ياوَيْلَتَنَا مَالِ هَـــذَا الْكِتَـــابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا}** [الكهف: 49] إنهم يتمنّون الموت؛ وكذلك قال قابيل " يا ويلتي ".وهل تأتيه الويلةعندما يطلبها؟ لا، فقـــد انتهت المسألة وصار قاتلاً لا أخيه" [5]

(1) ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 225/10 وما بعدها.

(2) الرَّويَّة: التفكر في الأمر. الرازي، مختار الصحاح، 267.

(3) أبو حيان، البحر المحيط، 481/3.

(4) البيت للمتنبي يمدح به كافورا الإخشيدي في جمادى الآخرة سنة 346. ينظر: الواحدي، شرح ديون المتنبي، في برنامج المكتبة الشاملة.

(5) ينظر : الشعراوي، تفسير:3081/5.

الخاتمة: فأصبح من النآدمين

انتهت وقائع القصة بندم القاتل الذي ذكره الله تعالى بقوله: **{فَأَصْبَحَ مِنَ النَّآدمينَ}**، وهكذا حال كل مرتكب خطيئة لا بد أن تقع له ندامة ما، سواء كانت لله أو لغير الله سبحانه، وسياق الآية لا يدل على أن ندمه كان لله، بل إن هذا الندم ترتب على عجزه عما قدر عليه الغراب كما هو واضح من التعقيب بالفاء في قوله: **{فأصْبَحَ}** الذي ورد بعد قوله: **{قالَ يا وَيْلَتى أعَجَزْتُ أنْ اكونَ مِثلَ هذا الْغُرابِ فأُوَارِي سَوأَة أخِي}** ثم قال: **{فأَصْبَح مِن النَّآدمين}**. فهذا يدل على أن الندم اعتراه بعد رؤية الغراب، ويدل على أن ندمه لم يكن ندم توبة من الحَوبة، ولذا لم ينفعه ندمه عند الله، ولم يزُل عنه به وزر القتل، بل ما من نفس تقتل ظلماً إلا وله شركة في دمها.

ومن المفسرين من سلك مسالك أخرى في توجيه هذا الندم[1] فمنهم من ذكر أنه أصبح من النآدمين لأنه لم ينتفع بقتله، وسخط عليه أبواه وإخوته، وهذا لا يظهر من سياق الآية رجحانه. ومنهم من قال: إنه ندم على قساوة قلبه، وذلك لأن الغراب لما قتل الغراب ودفنه قال: هذا أخي وشقيقي ومن لحمُه مختلِط بدمي، فإذا ظهرت الشفقة من الغراب ولم تظهر مني على أختي كنت دون الغراب في الرحمة[2]. وهذا حسن ظن بقاتل عمد عرفت منه قساوة القلب والإصرار على رد الحق، ثم إنه لا يظهر تناسقه مع سياق الآية، وكذا لا يتناسب مع ما صح من أن له شركة في كل قتل بغير حق يحصل بعده.

الخاتمة

لقد انقضى زمن القصة وبقي الأثر، وذلك من عدة أوجه:

- أولاً: ما كتبه الله على بني إسرائيل من أجل ما جرى من ابن آدم، وهو: أن {مَنْ قَتَلَ نفْسًا بِغَيرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا} كما تقدم الكلام عليه في تعداد آيات القصة.
- ثانياً: ما تقدم في البحث من أن كل قتل بغير حق إلا ولابن آدم القاتل فيه شركة.
- ثالثاً: اعتبار أهل الذكرى بهذه القصة، وتخويف أهل الظلم بها.
- رابعاً: قراءة المؤمنين للقصة في القرآن الكريم وإثابتهم على قراءتها.
- خامساً: الارتباط الوثيق بينها وبين مشاهد القتل بغير حق، تلك المشاهد التي تبعتها على تكرر الدهور والأزمان، من حيث أنها كانت قاعدة لما وقع بعدها من جرائم القتل.

(1) ينظر فيها: الزمخشري، الكشاف، 660/1، أبو حيان، البحر المحيط، 481/3.

(2) ينظر ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، 297/7.

قائمة المصادر والمراجع

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (1407هـ). *الجامع الصحيح المختصر*. تحقيق: د. مصطفى ديب البغا.ط3. بيروت: دار ابن كثير، اليمامة.

ابن الجَوْزي،جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (1422هـ)*زاد المسير في علم التفسير*. تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط1. (د. م)، (د. ن).

ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني(1406هـ). *تقريب التهذيب*. تحقيق: محمد عوامة.ط1. سوريا: دار الرشيد.

ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني (1326هـ). *تهذيب التهذيب*.ط1. الهند: مطبعة دائرة المعارف النظامية.

ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني (1390ه). *لسان الميزان*. ط2. الهند: دائرة المعارف النظامية، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

أبو حيان، أثير الدين محمد بن يوسف بن علي الغرناطي الأندلسي (1422ه/2001م). *البحر المحيط*. تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين. ط1. لبنان: دار الكتب العلمية.

أبو داود، سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني الأزدي (د. ت). *سنن أبي داود*. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد (د. ط).بيروت: دار الفكر.

الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (1413ه/1992م). *الكاشف فيمن له رواية في الكتب الستة*. تقديم وتعليق: محمد عوامة، أحمد محمد نمر الخطيب. ط1. جدة: دار القبلة للثقافة الإسلامية– مؤسسة علوم القرآن.

الرازي، زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (1415هـ/1995م). *مختار الصحاح*. تحقيق: محمود خاطر. (د. ط).بيروت: مكتبة لبنان ناشرون.

الرازي، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر التيمي البكري الشافعي (1421هـ/2000م). *التفسير الكبير/مفاتيح الغيب*. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.

الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر. (د. ت). *الكشاف عن حقائق التنـــزيل وعيون الأقاويل*. تحقيق: عبد الرزاق المهدي. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

السعدي، أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله آل سعدي (1420هـ)*تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان*. تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق. ط1. بيروت: مؤسسة الرسالة.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (1394هـ). *الإتقان في علوم القرآن*. (د. ط). تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (1993م). *الدر المنثور في التفسير بالمأثور*. (د. ط). بيروت: دار الفكر.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الآمُلي(1420هـ). *جامع البيان في تأويل القرآن*. تحقيق: أحمد محمد شاكر. ط1. بيروت: مؤسسة الرسالة.

طنطاوي، د. محمد سيد (د. ت). *التفسير الوسيط*. (د. ط). القاهرة: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

ابن عادل الحنبلي، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الدمشقي النعماني (1419هـ). *اللباب في علوم الكتاب*. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض.ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن عاشور محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي(1984هـ). *التحرير والتنوير من التفسير*. (د. ط). تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع.

الفَيُّومي،أبو العباس أحمد بن محمد بن علي (د. ت)*المصباح المنير في غريب الشرح الكبير*. (د. ط). بيروت: المكتبة العلمية.

القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق (1418هـ). *محاسن التأويل*. تحقيق: محمد باسل عيون السود. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدِّينَوَرِي (1398هـ/1978م). *غريب القرآن*. تحقيق: أحمد صقر. بيروت: دار الكتب العلمية.

القشيري، عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك (د. ت). *لطائف الإشارات*. تحقيق: إبراهيم البسيوني. ط3. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (1420هـ). *تفسير القرآن العظيم*. تحقيق: سامي بن محمد سلامة. ط2. دار طيبة للنشر والتوزيع.

المِزّي، أبو الحجاج يوسف بنعبد الرحمن بن يوسف (1400هـ). *تهذيب الكمال في أسماء الرجال*. تحقيق: د. بشار عواد معروف. (د. ط). بيروت: مؤسسة الرسالة.

مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القُشَيري النَّيسابوري (د. ت). *الجامع الصحيح/صحيح مسلم*. (د. ط). بيروت: دار الجيل–دار الآفاق الجديدة.

الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد النيسابوري الشافعي (د. ت). *الوجيز في تفسير الكتاب العزيز*. تحقيق: صفوان عدنان داوودي. ط1. دمشق، بيروت: دار القلم، الدار الشامية.

المطعني، عبد العظيم (1413هـ/1992م). *خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية*. ط1. مكتبة وهبة.

الخطيب د. عبدالكريم (1395هـ/1975م). *القصص القرآني في منطوقه ومفهومه*.ط2. بيروت: دارالمعرفة للطباعة النشر.